المحاضرة السابعة: ابن عبد ربه و المؤثرات المشرقية

هو أبو عمر بن محمد بن عبد ربه ولد في قرطبة سنة (246ه) امتاز بسعة الإطلاع في العلم والرواية والشعر، كتب شعرا في الغزل ثم تاب وكتب أشعارا في الزهد والمواعظ، أسماها: بالممحصات من أشعاره:

أَلا إنَّما الدُّنيا نَضَارَةُ أَيْكةٍ .... إذا اخْضَرَّ مِنْهَا جَانِبٌ جَفَّ جَانبُ

فَلا تَكتَحِلْ عَيْنَاكَ فِيهَا بِعَبْرَةٍ ..... على ذَاهِبٍ مِنْهَا فَإِنَّكَ ذاهِبُ

أعظم أعماله " العقد" ولشهرته والتفاف الناس حوله أضيف له نعت الفريد وأصبح يسمى: العقد الفريد: يعتبر من أمهات الكتب يحتوي على جملة من الأخبار والأمثال والحكم والمواعظ والأشعار، قسمه إلى أبواب يحمل كل منها اسم حجر كريم: كاللؤلؤة، الزمردة، الجمانة، الياقوتة، المرجانة،... وما إلى ذلك من جواهر العقد.

توفي سنة (328ه) أما وقفاته النقدية في كتابه العقد فقد جاءت متأثرة بالنظرة المشرقية، فقد تحدث عن عيوب الشعر في باب(ما يعاب على الشعر وليس بعيب) ويرد العيب المزعوم في شعر بعض المتفرقين ووجه المعنى إلى ما قصد إليه الشاعر أو ما ألفه العرب في لسانهم، ومما عابوه وليس بعيب قول زهير:

قِفْ بالدِّيارِ التي لم يَعْفُها القِدَمُ.... بَلَى وغَيَّرَها الأرياحُ والدِّيَمُ

هذا البيت أعابه النقاد على زهير فقد نفى، وحقق في معنى واحد فقد نقض في عجز هذا البيت ما قال في صدره، لأنه زعم أن الديار لم يعفها القدم، ثم أنه انتبه المرقدة فقال بل عفا وغيرها الأرياح والديم، وليس هذا معناه الذي ذهب إليه وإنما معناه أن الديار لم تعف في عينيه من فرط محبته لها وشغفه بمن كان فيها.

كما تحدث عن ثنائية الطبع والتكلف فقد كان يميل في الشعر لما كان وليد الطبع دون التكلف، وما صدر عن السهولة دون التعقيد.

وجاء بمختارات شعرية في أغراض مختلفة كرقة التشبيب والتوديع لتكون أمثلة تطبيقية لما ارتضى من رأى في الشعر.

وقدم لأول قصيدة اختارها بقوله: (ومن الشعر المطبوع الذي يجري مع النفس رقة، ويؤدي مع الضمير إبانة)، ثم ينتقل إلى قضية القديم والحديث وحسبه أنه كرر رأي ابن قتيبة – ولم يذكره- في أن لكل ذي فضل فضله، ولا ينفع المتقدم تقدمه ولا يضر المتأخر تأخره، فأما من أساء النظم ولم يحسن التأليف فكثير ....، ثم تطرق إلى قضية أخرى وهي اللفظ والمعنى وقرر أن العلماء شبهت المعاني بالأرواح والألفاظ بالأجساد واللباد ولابد من المعنى

الجزل واللفظ الحسن، ليتم للكلام رونقه وبهاؤه، وهو ينصح بأن يوضع المعنى مع شقائقه وقرنائه. كما لم يقنع بتأويلات النحويين كقول الفرزدق:

وعضّ زمان يا ابن مروان لم يدع ... من المال إلا مسحتا أو مجلّف

وكان له موقف واضح في هذه القضية، فإنه يقبل الخطأ النحوي إذا كشف الشعر عن معنى جيد، أو تشبيه رائق.

قضية السرقات: عبر ابن عبد ربه عما اصطلح عليه باسم الاستعارة وقال: " إن الاستعارة قديمة في الشعر والنثر وهو يرى أن معظم المعاني مأخوذ بعضها من بعض وقلما يأتي لهم معنى لم يسبق إله احد إما في المنظوم وإما المنشور، لأن الكلام بعض من بعض ولذلك قالوا في الأمثال: ما ترك الأول للآخر شيء" واستشهدا بما قال زهير:

ما أرانا نقول إلا مُعارًا .... أومُعادا من قولنا مكرورًا) وهو يرى أن أخذ الشعر من النثر والعكس من الاستعارة الخفية التي لا يؤبه بها، كما أن أخذ المعنى والزيادة عليه يجعل من حق المعنى للذي زاد فيه وذلك كقول الأعشى:

وكأس شربت على لذة وأخرى تداويت منها بها

فأخذ هذا المعنى الحسن بن هاني(أبو نواس) فحسنه وقربه إذا قال:

دَع عَنكَ لَومي فَإِنَّ اللَومَ إغراءُ .... وَداوِني بِالَّتي كانَت هِيَ الداءُ

وقال كذلك بتوارد الخواطر .